عليه وبكى فقال له : لما جئت فقال : جئت لأودعكم وأسلم عليكم فصاح عليهم أخوهم قوموا إلى من أتاكم يسلم عليكم سلام من لا يرجو أن يراكم أبدا فويل لكم من هذا الوداع فقاموا فجعل يوسف ينكب على كل واحد منهم ويقبله ويعانقه ويقول : حفظكم ا تعالى وإن ضيعتموني آواكم ا تعالى وإن طردتم 4 وني رحمكم ا تعالى وإن لم ترحموني قيل : إن الأغنام ألقت ما في بطونها من هول هذا التوديع ثم أخذه العبد وطلب القافلة فبينما هو على الراحلة إذ مر بقبر أمه راحيل في مقابر كنعان فلما أبصر القبر لم يتمالك أن رمى بنفسه عليه فاعتنقه وجعل يبكي ويقول : يا أماه ارفعي رأسك من التراب حتى تري ولدك مقيدا يا أماه إخوتي في الجب طرحوني ومن أبي فرقوني وبأبخس الأثمان باعوني ولم يرقوا لصغر سني ولم يرحموني فأنا أسأل ا تعالى أن يجمع بيني وبين والدي في مستقر رحمته إنه هو أرحم الراحمين فالتفت العبد فلم يره فرجع فرآه على القبر فقال : وا لقد صدق مواليك إنك عبد آبق ثم لطمه لطمة شديدة فغشي عليه ثم أفاق فقال له : لا تؤاخذني هذا قبر أمي نزلت أسلم عليها ولا أعود بعد لما تكرهه أبدا ثم رفع عينيه إلى السماء وقد تمرغ بالتراب والدموع في وجهه فقال : اللهم إن كانت لي خطيئة أخلقت وجهي عندك فبحرمة آبائي الكرام إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن تعفو عني وترحمني يا أرحم الراحمين فضجت الملائكة إلى ا تعالى عند ذلك فقال تبارك وتعالى : يا ملائكتي هذا نبيي وابن أنبيائي وقد استغاث بي وأنا مغيثه ومغيث المستغيثين يا جبريل أدركه فنزل جبريل عليه السلام فقال : يا صديق ا ربك يقرئك السلام ويقول لك : مهلا عليك فقد أبكيت ملائكة السماوات السبع أتريد أن أطبق السماء على الأرض فقال : لا يا جبريل ارفق بخلق ربي فإنه حليم لا يعجل فضرب الأرض بجناحه فهبت ريح حمراء وكسفت الشمس وأظلمت الغبراء فلم ير أهل القافلة بعضهم بعضا فقال التاجر : انزلوا قبل أن تهلكوا إن لي سنين عديدة أمر بهذا الطريق فما رأيت كاليوم فمن أصاب منكم ذنبا فليتب منه فما أصابنا هذا إلا بذنب اقترفناه فأخبره العبد بما فعل مع يوسف وقال يا سيدي : إني لما ضربته رفع عينه إلى السماء وحرك شفتيه فقال له التاجر : ويحك أهلكتنا وأهلكت نفسك فتقدم إليه التاجر وقال : يا غلام إنا ظلمناك حين ضربناك فإن شئت أن تقتص منا فها نحن بين يديك فقال يوسف : ما أنا من قوم إذا ظلموا يقتصون ولكني من أهل بيت إذ ظلموا عفوا وغفروا ولقد عفوت عنكم رجاء أن يعفو ا تعالى عني فانجلت الظلمة وسكنت الريح وأسفرت الشمس وأضاءت مشارق الأرض ومغاربها فساروا حتى دخلوا مصر آمنين وكان هذا التاجر فيما قيل : مالك بن ذعر الذي أخرجه من الجب وقيل : غيره .

وروي أنه حين ورد به مصر باعه بعشرين دينارا وزوجي نعل وثوبين أبيضين وقيل : أدخل السوق للبيع فترافعوا في ثمنه حتى بلغ وزنه مسكا ووزنه ورقا ووزنه حريرا فاشتراه بذلك العزيز الذي كان على خزائن مصر عند ملكها وقيل : كان خباز الملك وصاحب شرابه ودوابه وصاحب السجن المشهور والمعول عليه هو الأول واسمه قطفير أو أطفير أو قنطورا والأول مروي عن ابن عباس وهو المراد في قوله سبحانه : وقال الذي اشتراه من مصر فهذا الشراء غير الشراء السابق الذي كان بثمن بخس وزعم اتحادهما ضعيف جدا وإلا لا يبقى لقوله : من مصر كثير جدوى وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العمليقي ومات في حياة